مكتبة المقتطف

شعر الشبيبي

بمناسبة ظهور ديوانه الجديد

ظهر في سوق الأدب من زمن قريب ديوان لشاعر من شعراء العروبة الفحول ، الذين تذكرنا أنفاسهم القوية بأنفاس الشعر الأولى يوم أن كانت تتهاوج بأصدائه القوية جنبات « المجنة » و « عكاظ » . ولقد كتب المقتطف عن هذا الديوان الجديد في شهر دسمبر من العام الماضي كلمة لكاتب فاضل ، كانت بمثابة التعريف السريع به

والحق أن الكتابة عن شعر الشبيبي وزير معارف العراق سابقاً تحتاج الى أناة طويلة ، وصبر كثير ، وتحتاج الى قراءة عميقة للوصول الى أغوار هذا الديوان العميق في معناه : الرصين في بنيته ، المشرق الوضاح في ديباجته . فليس شعر الشبيبي مما يتجمل بالقراءة العابرة ، أو النظرة الخاطفة .. ولكنه شعر يتصل بتاريخ اليقظة القومية في بلاد العرب . ومن هنا جاءت قيمته ، ومن هنا ايضاً استحق الشبيبي أن يقف صفاً الى صف مع أحرار العقيدة في الشرق العربي أولئك الأحرار الذين صحا الشرق على أصوات معازفهم الخالدة ، ومزاميرهم الباقية

والشبيبي في شعره مثل طيب لشاعر الأخلاق الأصيلة ، في الكثير من أبياته غرض صالح لكثير من مكارم الخلق ، وهو في هذا غير زائف النصح ، ولا لابس مسوح الأخلاقيين ، ولا متكلف غيرما في شيمته . وأنما هو عربي سمح النفس ، سليم الفطرة ، يتكلم عن تجربة ، وينطق عن خبرة

وشعر الشبيبي ككل شعر غيره ، له معالم توضحه وتميزه وتجعله قائم الأعلام ، واضح البرهان ، متميز القوام ... وأول ما فيه من المعالم هو تحديد الغرض فيه تحديداً لا مجال فيه للبس ، ولا مكان فيه للغموض . ويتجلى ذلك في قراءة أولى لشعره . فهو واضح جلي ترى فيه كل متسلم واضحاً ، وترى فيه كل هدف بيناً . ولا يحتاج الى اجهاد فكر أو اعمال رأي . أو اعانة قريحة لتفهم منه ماذا يريد أن يقول ، وماذا يود أن يرمي اليه وتاريخ الشبيبي نفسه هو صورة من هذه المعالم المحدودة ، فلقد كان وهو شاب مع رهط من شباب العراق (تفكر تارة في رسم أهدافنا ، وطوراً في الوسائل التي توصلنا اليها) كما ذكر هو في مقدمة ديوانه صفحة ه

.... ثم ما هي الأهداف التي كان يرمي الشبيبي وشيعته ورهطه الى أصابتها؟ وما هي الغايات التي كان يرمي اليها

لا بدَّ لدراسة هذه الأهداف وادراك هذه الغايات من دراسة مفصلة مسهبة لتاريخ العراق قبل الحرب العالمية الكبرى وأثناءها وبعدها. ولا بد من دراسة كل طرف، والاحاطة بكل حدث — دقَّ أو جلَّ — من أحداث الزمان نحو العراق لتعرف البواعث القوية، والدوافع القوية التي كانت تدفع الشبيبي الى الفيض بجدول يندفع كالسيل العرم ويرتمي كالجلمود حطه السيل من علِ ...

على أن الشبيبي نفسه قد أجمل هذه الأهداف المنشودة في الأسطر القيمة الأخيرة من مقدمة ديوانه — فقد تكون كما أحسن هو التعبير عنها — في جولة الشاعر في وجه من وجوه الأصلاح، وقد تكون في ومضة تنير السبيل الحالكة، أو صرخة تحيي العزائم الهامدة أو نفحة تبعث الرمم البالية وتنشر العظام النخرة. وذلك كله هو بعض رسالة الشاعر في الحياة

لقد عمل الشبيبي أميناً لبلوغ هذه الأهداف وتحقيق هذه المرامي، ثم غلبه التواضع فأنكر قيمة ماعمل، أو استصغر قدر ما أسدى. والله والحق يشهدان أن عمله جليل عظيم، وان أثره في نفحات هذا الشاعر انها وجهت الشرق الى الصحو بعد الرقاد، وأن نصيبه لا يقل عن نصيب المجاهدين

***

سبق أن أشرت الى الناحية الخلقية في شعر الشبيبي، وهي ظاهرة في الكثير من قصائده وقد ظهرت جلية واضحة في قصيدة عنوانها في سبيل الشرق نشرت سنة ١٩١٢ في مجلة الزهور المصرية، وهي أول قصائد الديوان وفيها يتنبأ للدولة العثمانية بالمصير الذي صارت اليه أثر الحرب الكبرى. وهي برهة تدل على ما في نظرات هذا الشاعر من الصدق. وتدل أيضاً على المامه الواسع بدراسة تاريخ الأمم دراسة مبنية على النظر العميق والبحث الدقيق. وفي هذه القصيدة بيت يعلي من قدر الأخلاق ويدل على مقامها في بناء الأمم. وهو

وإذا أراد الله رفعة أمة — حتى تصيح — أصاغرها أكابرها

والفكرة في هذا البيت هي الفكرة في بيت المرحوم شوقي:

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهي الفكرة في بيت شوقي الآخر:

وليس بعامر بنيان قوم اذا أخلاقهم هدمت خرابا

وله من قصيدة أخرى عنوانها العالم والمال صفحة ١١٩ هذه الأبيات: —

ورب منتصب كالباسقات نما فاختل ضوع النامي حيث نختان
مورد الوجنتين احمر لونهما كأن منح أعاليهن جريال
مثل الغصون اتت خضرات له كأنما — جل صنع الله — تمثال
بتل كالماء انجابا برقته او كالكتيب كثيب الرمل ينهال
لا طيبات من الاخلاق ترفعه ولا علوم تعليهن أعمال

والبيت الأخير منها يذكر الطيات من الخلق وأثرها في رفع الشخص وإعلاء شأنه . ويقول في ص ٨٢

وإذا لم تستقم أخلاقكم ذهب عنكم ذهاب الزبد

والشيبي لا يعنى بالمظاهر الخارجية للشخص ، ولا يعتز بجمال الثياب وحسن البزة . وهو في هذا يتفق مع الشاعر عباس بن مرداس الذي يقول

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير

وكثيراً ما كرر الشيبي هذا المعنى وأداره على نواح جميلة من القول . فهو يقول في صفحة ١٠٦

غير راقي النفس والروح التي وضع الروح ورقى بالدنا

ويقول في صفحة ١٩٩ : —

ورب أخاق طاف رسم صورته كما عفت تحت مجرى الريح اطلال
يجلو مطالع تبدو وهي كاسفة ويستجد برود وهي اسمال

***

وللشيبي كثير من أبيات الحكمة ، التي لا تقل في صدقها وانطباقها على الحق عن حكم السابقين من الشعراء . ولقد زخرت حكمه من طول تجاربه وكثرة اختباراته ، ولقد أشار هو إلى ذلك في قوله ص ١٢٤

مصاحبتي للأسود اغتصاب كتبها مصاحبتي للنحل

فهو قد عرف الحالين ، وحلب من الدهر الشطرين . .

ومن حكمه قوله ص ١٢٤

وأقرب ما كان بدر سماء من النقص حين يقال اكتمل

وهو قريب من قول الشاعر

إذا تم شيء بدا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

ومن حكمه أيضاً قوله

تزول ظلال الخلق عنا سريعة وظل الوقار غير زال

وهو قريب من قول الشاعر :

رأيت خيال الظل أكمل عبرة من هو في ظل الحقيقة راقي
تخوض وأشباح تمر وتنقضي وتفنى جميعاً والمحرك باقي

ومن حكمه قوله ص ٦٣

أرى غربة الانسان شتى صنوفها وأعظمها الغربان من لم يشاكل
وما كل ريع غص بالناس آهل اذا كان من معروفه غير آهل
شكا الناس فقد الجاهلين وإثمهم درو ان ما تنكرونه فقد الجاهل

وقوله ص ٦٨ : لسان حال الرزايا قائل لبني جد فيا ويل قوم جدهم لعب

وقوله ص ٧٠ : خيراً أرى لك من أخاف لك شري يا نفس من أن تأمني لتخافي

وقوله ص ٣٩ : اذا كاد أتقي الناس في كيدته وان كاد أدنى الناس مني أعادني

وقوله ص ٤٣ : اذا لم يجشك الشعر عفواً خاطره وان لم يسلك الخلق لا تتخلق

والشبيبي شاعر مملوء بالتجديد والحركة ، يكره الجمود ويحاربه ، ولكنه ليس بمجدد الهادمين المهدمين ، ولكنه مجدد كمازن الوشيدي الخطي . أشار الى ذلك في مقدمة ديوانه حيث يقول (كان في مقدمة العقبات الشاقة التي تواجهنا دائماً استفحال الجمود) . وما زال في معظم قصائده يدعو الى التجديد ، ويئس من شدان القديم . فهو يقول في ص ٧٠

يا شادي الاوتار الجديد استقيلوا من طول شدان القديم الدني
بني القديم ! واتما حدثتم ضرباً من الاسماء والاوصاف

ويخاطب شباب الأمة العربية بقوله ص ٨٠

يا شباباً درسوا فاجتهدوا ليتالوا غاية المجتهد
وعد الله بكم أوطانكم ولقد آن نجاز الموعد
أنتم جيل جديد خلقوا لعصور مقبلات جدد

فهو هنا يؤمن بالتطور والملاءمة بين الشباب وبين الجيل الذي يعيش فيه وفي ص ٩٤ يثني على الأمة العربية جودها ووفاءها والدنيا سائرة حيث يقول : —

يا أمة من جهلها تأبى مجاراة الامم

أما الاجتماعيات فمبثوثة في ديوان الشبيبي . وليس ذلك غريباً عليه فقد نصب نفسه للاصلاح الاجتماعي وجعله واحد أهدافه . ولقد أفرد للاجتماعيات باباً خاصاً في الديوان يزيد على عشرين صفحة ، والحق أني لم أفهم لذلك الأفراد معنى . فالديوان كله من ألفه الى يائه شعر اجتماعي من طراز عال ، وتظهر اجتماعياته في شعره السياسي كما تظهر في حكمه وأخلاقياته ووجدانياته وهو حين يتكلم في الاجتماع أو النصيحة أو الحكمة فانما يستلهم قلبه وصدق إخلاصه ، حتى لترى ذلك موسوماً به شعره . كما قال هو عن نفسه ص ٨٢

ليس هذا الشعر ما تروونه ان هذي قطع من كبدي

ويتجلى هذا الصدق في بيتين من قصيدة عنوانها (ألامة الشعر) ص ٨٦

جر عن القصد لداني وقد أعرقت في مبراي أعراقا
صدقا سبا لأوطاننا أطيب من أنفق أعراقا

فهذا الصدق في الحب الوطني هو نتيجة لازمة لصدق الشاعر في كل ما تعرض له من الشؤون ، وهذا الصدق نفسه هو الذي جعله يصرح بما يراه من عيب في أمته ، ويجاهرها بأدوائها الضاربة في جسدها في غير مواربة أو مهادنة ، تلك الأدواء والعلل التي أدت — كما يقول في المقدمة — الى فساد نظم الحياة في العراق ، وحرمان اكثر أرجائه من نعمة الرفاء والطمأنينة ، ويتجلى صدق الشبيبي في الحب الوطني وصراحته في اظهار الأدواء في هذه الأبيات ص ٩٨

متى تتحرى احد فيما تقوله وما تتناه ونحن في الهزل ؟
أترتجع الاقوام عنا مكانة ونحن نسير الخرف في عظم سفلي ؟
ولكن غابات كثار تروعها ولبس لها منها سوى الضرب والاكل
على المدن فليتني اعالك ان نبت والا فما معنى ابتناء على الرمل ؟

وهو من أجل صلاح وطنه واصلاحه يبيت على الهم المقيم المقعد ، يتجافى جنبه عن كل

مضجع . يلتفت من بعد الى الله ، حتى لتضيق عليه رقعة بلاده ، فيكاد يضيق صدره فلا يجد له متنفساً الا انطلاق لسانه بمثل هذه الأبيات من صفحة ٣٦ : —

لم يخلصوا باني الصدير بما بني ومشيدي ما أسسوه وشادوا
لولا التفكر في معيد بلادكم تالله ما صاقت علي بلاد
اني أبيت لأجلها متململاً قلق الوساد وما لدي وساد
فلقد ذكرتم مفسدون قد اجتنوا ثمر الوفاق وأنتم الحصاد

ويعجب في هذه القصيدة الثائرة من أمور في وطنه ويحار في قومه فلا يتحرج من ابدائها ولو آذت قوماً أو آلمت فريقاً . ويؤلمه هو ما يرى من تحكم الجاهلين وسيادة السودين فيقول :

انظر الى الاعجاز كيف تصدرت وعمائم السادات كيف تساد
شر العصور — وفي العصور تفاوت — عصر به تتقدم الاوغاد

وكأنه يشير في البيت الثاني الى بيت الأقوه الجاهلي

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

ويؤلمه أكثر من ذلك ما يرى في وطنه — وما هو الا صورة لما يجري في الشرق كله — من ثمرات حزبية وخلافات سياسية فرقت الشمل ، ومزقت الوحدة ، وأوهت الجهود فيصرخ صرخة قوية لا يخاف بطشاً ولا يخشى ، فيقول ص ٣٩

تسعة قوم بالعراق وسموا اني وطني — ما بيعهم يوماً — بأثمان
هم استقبوا الاوزار يقترفونها وقالوا حبي الحمد وما هو باحبابي
هم استحبوا اللذات يشتهرونها وهم بدلوا بالجوهر عرض الفاني
وقد تكثر الخير العراق أرضه فيأتي ليدمر منه من ليس بالداني

وحب الشبيبي لوطنه يكاد يصل من كل كلمة في ديوانه الجديد ، وكأنما ملك هذا الحب عليه كل سبيل . وانك لتحس وأنت تقرؤه لواعج هذا الحب تضطرم في نفسه ، وتحس ان هذه الكلمات التي يرسلها هي ذوب فؤاد محرق بهوى الوطن ورجائه الاصلاح ولكن الظروف لا تطاوعه ، والأقدار لا تظاهره . وهل هناك أكثر وجداً من هذه الأبيات اخترتها من قصيدة عنوانها في العراق ، نشرتها صحف سوريا ومصر سنة ١٩٣٢ : —

هناك تأملت الديار موائلاً تغار ثأراً وضغن رحبه
فأرسلت عيني لامآي فأعلنت وسرحت فيهن الزفرة نكباء .
وقفت عليها مكمد الارض واجماً وأضرب في خد الصعيد مرابا
أصعد أنفاسي بهن لواظاً وأندب أجداثاً لهن سجاجه
فلا نفس زفرة بل متاثة ولم أبك دمعاً بل بكيت شبابا

هذا لمح الى شعر معالي السيد محمد رضا الشبيبي وزير معارف العراق سابقاً واحد الناظمين في بوق نهضته ، وهو شعر يجدر بالشبيبة العربية ان تقرأه وتستوعب ما فيه لأنه وحي نفس مؤمنة بحقها الكامل في الحياة كل الايمان

القاهرة محمد عبد الغني حسن